المنزلة في رأس الجبل

حكمة العالم
مستعرة المنزل

قال الراوي : —

وكنت ممتطياً بغلاً من بغال الدير . وبغال الأديرة سمينة شديدة قوية اعتادت سلوك الوعور الجبلية . وكان الطريق المطروق ما مهّدته حوافر الدواب فقط ، ولا يسع للغلين يسيران معاً فيه . وكأنه سُلّم مختلفة الدرجات ارتفاعاً واتساعاً وانحداراً إلى جانب فالى آخر ، أو كأنه خطٌّ لولبي متعرج لا ترى بدايتهُ بعد ان تبتعد عنها ولا نهايته قبل أن تصل اليها . وفي بعض الأحيان كنت أرى في ذلك المنحدر الجبلي بعض مسالك طبيعية كأنها فروع للطريق حتى كنت أخاف الضلال فيها . على أني تركت للبغل حق الارشاد فيها لأنه ألف المسير في ذلك الطريق الوعر ، فأطلقت له الحبل على الغارب . وقلت « إني في قيادتك يا مرشدي » . وكنت في أول المرحلة أخاف أن تزلّ أقدام البغل ، فيتهوّر بي متدحرجين في تلك المنحدرات إلى بطن الوادي العميق . ولكني ما لبثت أن اطمأنت إذ رأيت البغل لا ينقل حافراً إلاّ وقد أقرّ الحافر الآخر في موطن أمين . ووالله لو كنت أسير ماشياً في ذلك الوعر المتعسّر المصاعد لزلّت قدماي كل خطوة بعد أخرى ، وما أمنت الوقوع إلى أسفل والتردّض ، وربما قُتلت ، وقد لا يدري بجيفتي أحد سوى الضواري والكواسر . ولكن ذلك البغل كان يعرف كيف يضع قدمه فلا يزلّ .

وكنت أنظر الى المقام الذي أقصد إليه فأراه تارةً على مقربة ، وافتقده تارةً أخرى فاذا هو غائب عن بصري . وأحياناً كنت أظنني قد قاربت الوصول اليه فإذا بي أعد الدقائق بالعشرات وما زلت غير مدرك .

وكان رئيس الدير قد أنبأني أن مكاري الدير عائد من معتزل المتنسك ، فإذا التقيت به ورغبتُ اليه أن يصطحبني ، فما عليّ إلا أن أبلغه أمرهُ بذلك فيترك بغله ويعود البغل وحده ، وهو يسايرني الى المعتزل .

بعد نحو ساعة ونصف سمعتُ نباح كلاب يشعرني بأنها خطرة . فعلمت أني قربت الى

مستعمرة المتنسك، ولكني لما أرَ له شكلاً بعد. وكنت كلما تصاعدت اشتدَّ النباح حتى خفت أن تنقض عليَّ تلك الكلاب الضارية فتمزقني شرَّ ممزَّق. وأخيراً: —

وأخيراً أقبلت على جدار طويل مرتفع غير مستقيم ورأيت ثلاثة كلاب تطل كأنها أسود وقد هاجها منظري، واشتدَّ نباحها. وكادت تثب من الجدار من طول قامتين أو أكثر. وإذ بفحص جبَّار المظهر مسمَّر الرجلين قد أطلَّ وهو يزجر الكلاب. فعثمتُ ان صمتُّ إلاَّ بعض نبحات متقطعة. ثم رأيت بواباً في طرف الجدار الجنوبي قد انفتحت وخرج منها المكاري الذي قلت أن رئيس الدير قد ذكره لي. ثم أوصيت على الأثر. وكان الطريق قد عرض، فتجاوز بغلهُ بغلي. وصلت الى البوَّابة. وهي عريضة شاهقة مصنوعة من قضبان من حديد متشابكة عمودياً وأفقياً. ثم ظهر من ورائها الرجل العملاق. وكنت أتوقع أن يعبس لي لما سمعت عن نفوره من الناس، فإذا ببشاشته الطبيعية تبشرني بحسن القبول. وتفرَّس بي وقال: —

أفلك تجهل قانون المملكة الذي لا يُنقض.

فقلت: لا. بل علمت من سيِّد الدير: وهو أنه لا يدخل الى هذا الملكوت العلوي بشر. وإنما زوَّدني السيد بتوصية قد يمكن أن تعطِّل القانون برهة.

ودفعتُ اليه وصية السيدُ من بين قضبان الحديد. وكان الرئيس قد قرأها عليَّ قبلاً، وهي: «زائر كريم أوجو أن تستضيفوهُ برهة».

قرأها ثم نظر فيَّ متفرِّساً وقال: ما هو الزائر الكريم؟

فقلت بنفسي: «أي الحيوانات أنا حتى يسألني عن نفسي بحرف «ما» لا بحرف «مَن»». وأجبتُ: إني من الانس لا من الجنّ كما ترى.

قال: لم أعرف من بني آدم إنساناً سوى بضعة أفراد عبروا في فضاء التاريخ.

فقلت: ماذا بنو آدم إذن.

قال: هم من أهل الجحيم.

قلت في الفور، لقد شذذت أنا عن بني آدم.

— إذن من أي سلالة أنت.

فحضرني المنطق السديد في الحال وقلت: إني من سلالة الكلاب لا من سلالة الثعالب

فقال: استدعي أحد كلابي لكي أرى هل يتعرَّفك.

فرجف قلبي فيَّ وقلت لنفسي: إن هذا الناسك المجنون سينتقم مني بكلابه. وأجبت: اذا كنت لا تعرفني فتكون من بنات آوى لا من أسرة الكلاب الصادقة

ثم نادى . أبجر . أبجر . أبجر . وفي الحال كان الكلب أبجر بين يديه هائجاً يزمجر كالأسد، فربت على كتفيه قائلاً له : هل ترى بين هذا الحيوان وبينك صلة القربى. فسكت الكلب وجعل يوصوص بذيله ويلحس سلام صاحبه . وقال لي : مد يدك إليه. لا تخف ان كانت بينكما قرابة

فزعت وقلت بنفسي : « ان سحق أبجر اليسرى تبقى اليمنى . فلا أكن جباناً . وأجبته : لا أخاف إذا لم تكن أنت من الآدميين يا أبجر . ومددت اليسرى وهو لا يزال يربت على كتف أبجر . فجعل أبجر يلحسها . فردت لي روحي التي كنت أظنها ضائعة في عالم الفناء . فقال لا تظن أبجر يخطىء في تعرف بني نوعه الأنباء . تفضل ادخل ، مرحباً بك .

وردّ مزلاج البوابة وفتحها قائلاً : لا تترجل عن هذا المخلوق الخدوم . دعه يدخل معك . فان له عندي كرامة الضيف

فدخلت بغلي . ثم أوصد البوابة ومشى أمامي إلى أمام الاسطبل حيث ترجلت وأدخل البغل إليه . ثم أمسك بيدي يقودني ويقول : إن هذه البوابة لا يدخل منها إلا الحيوانات الطاهرة الثلب . وأنت أول حيوان أجنبي دخل إليها منذ نشأة هذا الملكوت، بشفاعة سيد الدير الذي له كرامة عندي، لأن هذه البقعة من الجبل ملك الدير . وقد تفضل الكاهن الوزوع بأن سمح لي أن أستعمرها إلى أن أفارق جحيم الأرض، فتبقى للدير معمورة جزيلة الغلة

فقلت : نعم ذلك السيد التقي الكريم . ونعم هذا المستعمر الفضيل .

وعشيت على مهل أجيل نظري في تلك المستعمرة الفسيحة الوارفة الظلال وقد سحرني مناظرها فلم أعد أنطق ببنت شفة ، وهو بقي صامتاً لا ينبس بكلمة كأنه حيوان ناطق قليل الكلام . لا يتكلم إلا جيباً على سؤال أو خطاب . كذا ظننت . وكان يسايرني حيثما اتجهت من غير أن يوجه وجهتي إلى ناحية

بقعة ، تحت قنة الجبل المرتفعة كبرج عظيم ، يكاد يتعذر الارتقاء إليها لشدة انحدارها، والبقعة تنحدر انحداراً في زاوية مع الأفق لا تقل عن ثلاثين درجة كما أظن . وقد مُهِّدت بشكل مدرّج تتراوح سعة الدرجة فيه بين خمسة وسبعة أمتار وتتصل بعضها عن بعض بمحو متر ، وتكاد تكون مستقيمة الطول إلا حيث تقتضي طبيعة الأرض استقامتها . وأما الدرجة السفلى التي تعتبر كأنها صحن الدار فرحيبة، يتراوح عرضها بين ١٥ و٢٠ متراً وطولها لا يقل عن خمسين متراً . وقد انتهى الجانب الشمالي منها بأبنية من حجارة ضخمة غير منحوتة ولا « مقصّبة » كأنها من أبنية ما قبل التاريخ . وغربيها ذلك الجدار العالي الذي أشرت إليه آنفاً . وقد ارتفع عن صحن الدار نحو نصف متر للوقاية من الوقوع . وأما

شرقيها جدار عالٍ ارتفع عليه سور من حديد وأسلاك شائكة وكذلك جنوبيها .

وقد بسقت في هذه الدار أشجار السرو والنسرين والسنديان وغيرها كأنها تظلها بعض التظليل . ورأيت فيها قناة يجري فيها الماء الغزير من منحدرات من ذلك المدرَّج

وارتقيت بسلالم من « جلّ الى جلّ » (والجل هو درجة عريضة من الدرج) وطفت في المدرَّجات من الواحد الى الآخر . وكان الفصل آخر الربيع أو أول الصيف . رأيت الى الجنوب مروجاً خضر وقد بسقت فيها سنابل القمح والشعير في أوائل عهدها . وهناك مرجة للحمص وأخرى للفول . ثم مرجة للبقول على اختلاف أنواعها . ثم الى الشمال بساتين مختلفة الثمار من موز وتفاح وكمثرى وتين الخ . ثم في الجلّين الاعلين كرمة من الدوالي تحسن غلتها بالقناطير .

هذا مجمل مختصر لوصف هذه المستعمرة الأنيقة المنظمة تنظيماً ساحراً : « شغل المعلم لنفسه » . ثم انحدرت من أعلى الدرجات في سلالم أخرى وحينئذٍ كان لساني معقوداً من تأثير ذلك العمل العجيب في نفسي . فلما انتهيت من الطواف انحلت عقدة لساني .

قلت له : إنه لعمل عظيم جداً أن يتحول هذا الوعر الموحش الى جنة تجري من تحتها الأنهار . . انه لعمل شاق جداً . كم استغرق من السنين يا ترى وكم استنفد من جهد ؟

فقال : الى الآن مضت عليه تسع من السنين واستنفد جهد بضعة فعلة مدة سنتين كانوا أعواني في التمهيد وبعض الغرس وبعض البناء . وبعد ذلك كان جهدي وحده في السنين السبع الأخرى الا ما ندر إذ كنت استدعي عاملاً أو عاملين لعمل ما لا أستطيعه وحدي .

قلتُ : هذا عمل جبارة . فعجيب أن يكون عمل جبار واحد .

قال : إذا ضربت القوة بالوقت كان الحاصل ....

فأتممت العبارة : كان الحاصل ٣ آلاف جبار .

والتفت اليه فاذا هو يبتسم وقال : بل ألف جبار في عام . ولا تنسَ الجلد والصبر أيضاً

ثم تحشيت بحر الأبنية فرأيت كرسياً من الخشب . ونظرت هنا وهناك . فأدرك أني أبحث عن كرسيّ آخر . وأسرع الى المنزل الذي هو أحد الأبنية وعاد وبيده كرسيّ آخر أحسن صنعاً قليلاً وقال : لا بدَّ أنك تعبت . فتفضل اجلس . ثم جلس على الكرسي الأول وبقي لا يتكلم . وكنت انتظر أن يسألني من أنا أو عن اسمي ، وماذا أقصد من زيارته . وبقينا نحو دقيقتين ساكتين . فاضطررت أن استأنف الحديث وقلت :

أتقيم وحدك هنا ؟

فقال : لا . بل مني رفقاء أوداء

فقلت . لا أرى أحداً يقلل .

فقال : كيف لا . لقد استقبلك ثلاثة منهم منذ قريب . ثم استدعيت أمير فاستقبلك لدى البوابة وتبرقك .

فضحكت وقلت : أين الآخران ؟

فنادى : ضرغام ضرغام .

فإذا الكلب الثاني ينقض من « جبل » فوق الأبنية .

ثم نادى : لبؤة لبؤة . فإذا كلبة ضخمة مقبلة من ناحية أخرى كالبرق الخاطف . واقتربا إليّ يتبجحان تبجحاً لطيفاً . وقال : « هلموا حيوا الضيف » وأشار بيده اشارات فهمتها الكلاب . فتقدموا إليّ يلحسون يدي . ثم أمرهم أن يحشموا بعيداً . ففعلوا (استعملت ضمير العاقلين هنا لأنه هو اعتبرهم عقلاء) .

فقلت : أين الرفقاء الثلاثة . فأين هم البقية ؟

فقال : سأعرفهم بك بعد أن ترتاح . انهم في المراح الآن يعتلفون .

قلت : هل تعنيت السنين التسع معهم ؟

— معهم وحدهم . فهم خير الأصدقاء الذين عرفت

— ألم تمل هذا المعشر الأبكم ؟

— إنه خير من المعشر الناطق . ألم تمل أنت معشرك الثرثار ؟

— بعد كم سنة تمل المعشر الواحد ؟

— أملّ معشراً فأجد آخر

— بعد أيام أو أسابيع أو أشهر . وفي التغيير تفريج للكروب

قال : وما هذا الكروب ؟

قلت : من تغيير الأصدقاء

فقال : كيف يتغيرون

قلت : أرى الصديق اليوم صادقاً فلا ألبث أن أكتشف أنه كاذب . أرى الصديق اليوم مخلصاً فلا ألبث أن أراه خائناً ...

قال : كفى . خبرت كل هذا . أما أصدقائي هنا فكنت أظنهم كاذبين فإذا بهم يصدقون في ركضهم ونباحهم . وكنت أخاف أن يكونوا خونة . فإذا بهم أمناء في زجرتهم . لهذا لا أملّ معشرهم .

قلت : أغبطك وأحسدك على هذه الجنة الفيحاء التي لا يتطرق إليها الكذب والخداع والخيانة . ليتك تقبلني عشيراً لك هنا فلست أرى ...

فقاطعني قائلاً : لو كنت من فصيلة أصدقائي هؤلاء لرحبت بصداقتك ..

قلت : لعلك لو خبرتني ...

فقال مقاطعاً : خبرت ألوفاً غيرك من سواري الآدميين نفسي ما خبرت ومن جربت.

قلت : إذن أنت تعتزل هنا تحاملاً للأعداء .

فقال : لم أكن عدو الأحد وإنما كان الناس أصدقائي وأماني. على أني ست في ملكوت تكم القدر : ثم ولدت ثانية في ملكوت السلام والخير . لم أشأ أن أقضي الحياة كلها في جحيم ولا أدري بعدها ماذا يكون من نعيم . فرغبت أن أنشىء نعيمي هنا وأكمل بقية الحياة فيه

قلت : إذاً ، أنت هارب من ملكوت الإنسان

قال : بل إن ملكوت الإنسان نبذني، لأنه لا يطيق وجود غريب عنه فيه. تطهر مني صفحة من كتاب شعوذتي .

ورفع نظره الى السماء ثم قال : أظن الساعة الحادية عشرة والنصف الآن فكشفت ساعتي . فإذا هي كما قال تقريباً . فقلت . عجيب أن يصدق ظنك في الميقات إذ لم أرك تكشف ساعة

فقال . عندي ساعة الطبيعة . أزاول استفتاءها كل برهة بعد أخرى . فتصدقني الخبر لأنها ليست كساعتك التي فيما أنت تعتمد عليها تتعطل أحياناً فتكذب عليك . الشمس والنجوم لا تكذب ولا تتعطل . أظنك بعد قليل تشعر بجوع . فاسمح لي أن أعد طعام العشاء .

وسبقني الى المنزل وتجنبت أن أتبعه لكي لا أرى ماذا يعد من الطعام وكيف يعده . ولكي يتسنى له أن يحسب هذا فضولاً فتمشيت لكي أرى مناظر الطبيعة من هذا المكان الأعزل

انتهيت لدى السور الحجري القائم فوق الجدار العالي فإذا بي أرى الوعر منحدراً أي انحدار . وحاولت أن أتبين الطريق الذي جئت فيه فلم أرَ له إلا آثاراً قليلة بين أشجار السنديان وغيرها . لم أرَ في ذلك الوعر قرية ولا مزرعة سوى الدير الذي رأيته في بقعة أخرى بعيدة بعض القرى . فقلت في نفسي : كيف يعيش هذا الرجل في هذه العزلة وحده ؟ لا ريب أنه شاذ عن البشر . رأيت في سفح الجبل تحت مروجاً خضر وقرى كبيرة وصغيرة تاج العمران الذي اصطنعه الإنسان اصطناعاً . لو كنت شاعراً لأوحت لي تلك المناظر البديعة قصيدة تزري بشعر المتأخرين والمتقدمين

(يتبع العدد القادم نقلاً عن هلياي الانكليزي . والنقل للمقتطف)